قصـــة قصيـــرة

المـــســـخ

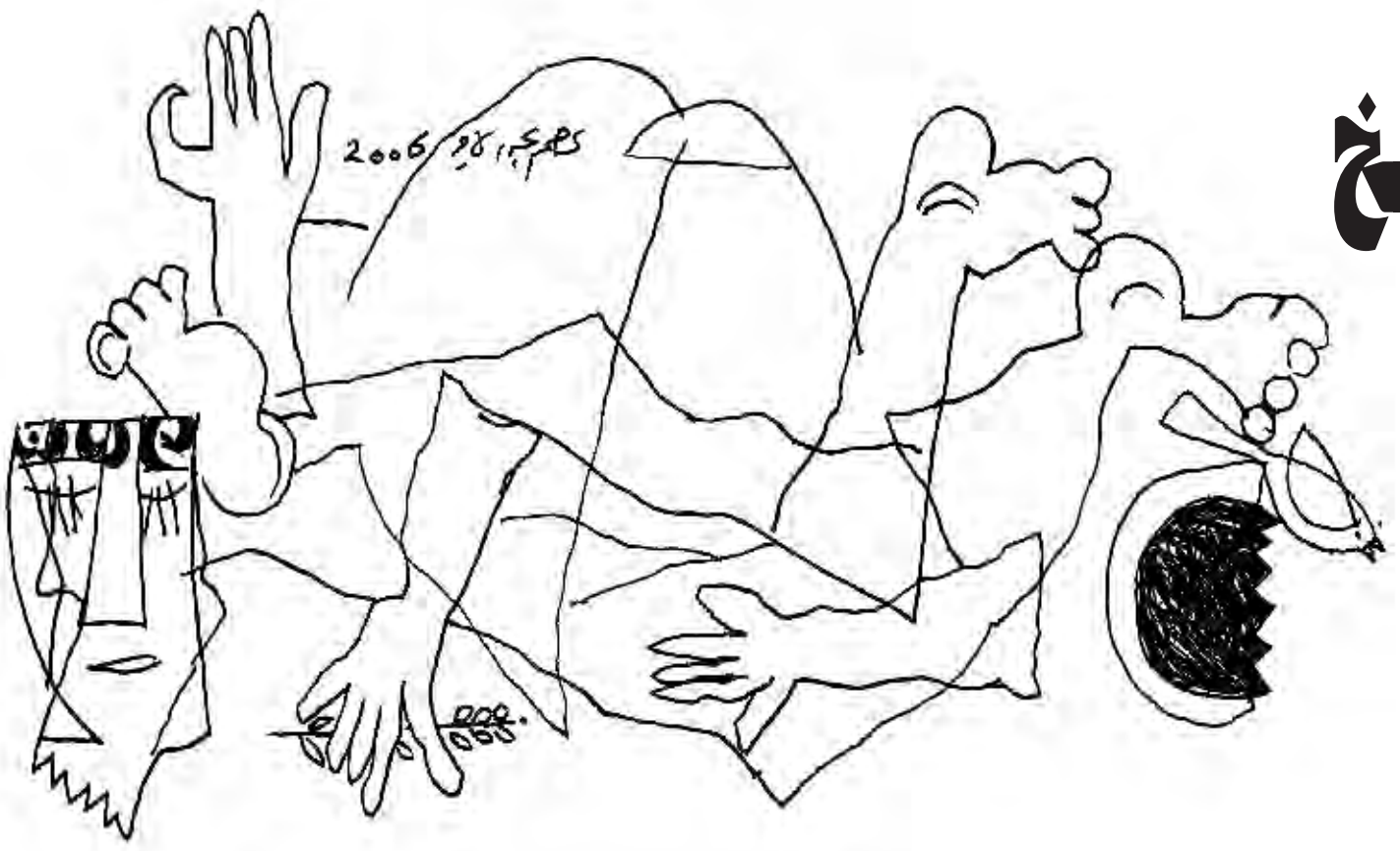

أنـور عبـد العـزيـز

لم يكن جالساً ولا واقفاً ولا متكئاً، ما كان مستنداً إلى شيء، ما كان معلّقاً أو مائلاً لجانب، تمنّيت لو لم اره، كان صورة مروعة، ذلك المسخ البشري الصغير الضئيل، كان راسه سليماً وكامل الوجه بعينين سوداوين جميلتين لامعتين منتبهتين رغم انكسارهما الحزين..

ما أن تترك رقبته النحيلة القصيرة كخيط حتى ترى صدرا هزيلاً أعجف، ويداً واحدة نحيلة باصابع معوّجة ملتوية متداخلة، مثلها رجل واحدة كقصبة معقوفة متّجهة نحو العجز بأصابع قصيرة، كزعانف سميكة مشوهة أو مخالب مقصوصة، عند البطن ينتهي كل شيء، هل أقول أن هذا المخلوق يبدو بلا بطن، هل يمتلك مثل هذا المخلوق منفذا للخارج؟!

رغم أنني صرت أراه كلما مررت برصيف الجدار المرمري اللامع العالي والباذخ للمصرف الكبير، وكان يبدو في ظل هذا الجدار نقطة داكنة كالحة.. كنت أراه وقد توسط عربة خشبية صغيرة عتيقة، وكان يبدو مع عربته بحجم قفص للطيور، لا ادري لم كنت أتخيله – ربما لضآلته – موضوعاً داخل قفص، مرات أراه بأعضائه وهيكله المشوّه شبه عار وقد اقتعد الرصيف البارد.. هممت – اكثر من مرة – أن اقترب منه لأحدّد خارطة ملامحه المشوّهة، لكنني كنت اتراجع خجلاً من فضولي، وخشية من إتهام أحد بأنني أتلذّذ وأمتّع نظري بمثل هذه المشاهد، لكنني – وفعلتها مرة واحد فقط – اقتربت منه وركّزت نظري في عينيه، لا حظت أنه رغم كل نظرات المارين ودهشتهم وعجبهم، فأنه لم يكن ينظر إلى احد، كان ينظر إلى جهة واحدة فقط، نقطة واحدة مركزّة لايرى فيها أحداً، مهما حاولت أن اجلب نظره لأتحسّس وعيه الأنساني، إلا انه كان يبدو وقد قرّر تحاشي أيّ لقاء بين عينيه وعيون الناس، وكان هذا كافياً لأن يحزنني ويوجع روحي – وكان يعرف حجم فجيعته – ما كان يريد أن يحقّق للآخرين متعة التحديق فيه لأكتشاف تشوّهاته، وهو – وربما كان ذلك صحيحاً أيضاً – يحسّ بعمق الالم وكأنه مذنب لأنه لايشبه الآخرين، ولا يلتقي معهم في صورهم المألوفة.. صارت هذه الكومة الضئيلة البشعة هاجساً مؤذياً، فكرت ان اغيّر طريقي، لكنه كان الطريق السهل القصير لي وشبه الوحيد.. كنت أفتقده لأيام قلائل واقول : لقد زالت وأنمحت صورته من مخيلتي – رغم قوتها ورسوخها – لكنه يعود –للظهور، وقد صار معلماً وملمحاً من ملامح هذا الرصيف العريض، والجدار المرمري العالي الصقيل واللامع المصرف الكبير.. اقرّر إهمال النظر إليه عند المرور بجانبه ولم افلح، ألست واحداً من كل المارّين الذين يتفحصون هذا البؤس ويدققون كل الاشياء، كنت حانقاً على امهّ وأبيه وأهله إن كان له أهل – أن يتركوه هكذا منظرا مقزّزاً وفرجة للناس، كنت أتمنى لو تستر عليه إحدى الجهات الخيرية ومؤسسات الرحمة والرعاية فتؤويه – وكنت أراجع نفسي – وقد تأكدّ لي ذلك أيضاً مما سمعته – أنه لا يتحمل الحجز في غرف أو قاعات مغلقة. وانه أسعد ما يكون وهو في حالته هذه، كنت أشكّ أن يكون وهو في حالته هذه، كنت أشكّ أن يكون من مثله سعيداً حتى لو وضع في أجمل جنّات الأرض وأحلاها..

يكفيه توجعاً أن يسمع هذه العبارات التي كان ينثرها العابرون عندما تصطدم عيونهم بالهيكل النحيل الناقص المعوّج والمتآكل، كان بعضهم يتعوّذ بصوت عال مسموع، وكان أكثر ما يجرحه ويؤذيه أولئك الذين يشكرون الله علانية وجهراً إذ خلقهم خلقه حسنة، كان يراهم أنانيين أشراراً ماداموا يذكّرونه – بشكرهم ودعائهم – أنه الوحيد المغبون الذي قدّر عليه ان يكون بهذه الخلقة الغريبة، وأنّ كلّ الخلق سعداء فرحين مرحين إلا هو وحظه المنكود – العجيب انه كان يتمتع بوجه سليم جميل وعينين لامعتين معبرتين وإن كانتا منكسرتين لاتحدّقان بوجه احد.. صارت كتلته الشوهاء لعنة في مخيلتي وذاكرتي، صار صورة راسخة في ذهني كلما أقتربت من أول الطريق المؤدي إليه، كنت أتفقده وأتفقد مكانه، ثم صار أذى لروحي لليال وايام وشهور، كنت أحمل فجيعته وكأنني أنا المسخ المشوه المفجوع، ودائماً كنت ابحث عن السبب في وجود مثل هذه التكوين الشائه، أهو جرم الطبيعة والخطأ البايولوجي ؟ ! أهو القدر الغادر المدّمر؟! هل عرف أبوه التعيس – وهو يستمتع بلحظته الراعشة – أيَّ مخلوق زرع وأيّة جريمة بشعة أقترف؟! كنت استنتج – وبتفكير متعب ولا مجد اسباب أن يظهر هذا المخلوق.. كنت افرح لغيابهً – وقلّما كان يحصل هذا الغياب – فكان كالعثرة المؤذية في طريقي، كنت أتمنى أن يرتبط غيابه يوما، بخبر موته الرحيم، حتى انني كنت أفكر – ولم أكن متكرراً لإنسانيتي – ألا يمكن للعدالة والقانون أن تفتي أو تتغاضى عن موت أمثال هؤلاء رحمة بهم، وتقصيراً أو اختصاراً لسنوات عذابهم وحزنهم ومذلّتهم.. رغم كل المحاولات المرهقة التي كنت أستهلكها في عقلي وضميري، ورغم كل حوارات النفس، ما وجدت حلاً تهدأ به الروح، وتأنس بعلاجه الصحيح.. كثيراً ما تمنيّت له الموت وربما كنت قاسياً ومتطفلاً على حياة الآخرين، وكنت أسأل نفسي: هل يقبل لو اخترنا له الموت علاجا ناجحاً وسريعاً وبرشفات قليلة لذيذة؟! كنت أراجع نفسي واستسخف مثل هذا الحلّ. فمن العيب والعار أن نذكر هذا لئلا يسمعنا احد، وحتى لو كان الامر فكرة خافته مجردة وحديثاً صامتاً مع النفس، فهل ترضى – حتى الصراصر والخنافس – وهي غائصة متسربلة بالنتن في اعماق الحفر بالموت خلاصاً لها من عالمها ووجودها الملوّث؟! وهل تستقر وتستكين – ولا تضطرب أو تهرب – عندما تشعر بأقلّ خطر أو بالنهاية الوشيكة المميتة؟! أية مقارنة هذه؟! أيشبّه انسان بحشرات النجاسة؟! صدقوني، لو رأيتموه، وهو في جلسته وتكوينه المرعب الكريه ويأسه الفاجع، لما رايتم فيه غير حشرة منكمشة مدعوكة تنتظر الخلاص، فأنا وعندما تمنيت له الموت – مرضا أو فجأةً أو بأي طريقة – لم أكن كارهاً او رافضاً لقبحه في هذا الوجود – فصور القبح ليست غائبة أو معدومة – ولكن لما يعانيه هذا التكوين البشري القميء الشاذ من احزان سوداء، ومن نفس مظلمة معتمة، وهو يحس انه مثال لأسوأ صور القبح وأبشعها.. لم أكن موبوءا بروح الكراهية تجاه هذه المسوخ، ولكن نفوراً غريزياً كان يرفض وجودهم كحالة طبيعية.. ألم ترهم يسرعون عند عبوره، وهم يهمهمون بكلمات مرتبكة خائفة تكشف وتفضح إضطراب أصحابها ووسوستهم ومنهم – فضوليون وصلفون وبلا حياء – كانوا يقتربون منه ليحدّقوا بكيانه، وكأنهم مصرّون أن يعرفوا أين حدود الصدر من البطن في هذه الكومة اللحمية، واين غابت الرقبة ؟؟ ولماذا أستحالت أصابع اليد الواحدة المشوّهة إلى ما يشبه مخالب مقصوصة ومعكوفة، وكيف تحولت أصابع الرجل الوحيدة إلى زعنفة متيبسة ؟؟ ليست كراهية، ولكنه التمنّي لو لم تكن حالة مثل هذه الموجودة تثير هلعهم وفضولهم..

كان صامتاً، لم اره يوما يتكلم، ربما هو اخرس، وربما أصمّ أيضاً . فمثله مستعد ومؤهل لجمع كل العيوب.. في صخب ضحى ذلك النهار الساخن الملتهب بشمسه وبهدير السيارات وضجيج الباعة والمقاهي والمطاعم والحوانيت في ذلك الشارع المؤدي إلى قلب المدينة وعلى الرصيف العريض.. كان يبدو – من بعيد – نقطة سوداء ضئيلة تحت سطوة الجدار المرمري اللامع والعالي الشامخ للمصرف الكبير، وقد مدّ جناحه الثاني وأحتوى الشارع الجانبي الآخر..

كانت الشمس تعلو لتطول قمم البنايات الأسمنتية وواجهاتها السامقة المرتفعة..وكانت تلك النقطة السوداء الشاحبة والضئيلة تكاد تختفي لتتيه وتضيع عن أفق السمع والبصر بعد أن صارت في البعيد البعيد...

الـرؤيـا الـصـوفيـة ومفهـوم الـوجـود

سعد علي المرشدي

١

تنطلق هذه الورقة من زاوية محددة، وهي النظر إلى التجربة الصوفية بوصفها رؤيا خاصة للوجود، ومنهجاً في الاستعلاء الروحي يسعى إلى انعتاق الروح من سجن الضرورة، ويهدف إلى (الكشف عن اسرار العالم المادي والنفسي والإلهي)١، بعد ان يقطع الصوفي رحلة من المقامات والأحوال التي تشكل الجذر المعرفي الاول لانبجاس الرؤيا الصوفية وسعيها نحو المطلق.

اسست الصوفية لنفسها عالماً مثالياً تمليه التجربة الذاتية القائمة على الحدس والذوق، وهي تبعاً لذلك تجربة او رؤيا لا تقارب الوجود بأداة من خارج لانها تقوم على استشراف الغيب الذي هو وليد نزعة روحية داخلية (لا المعطيات الموضوعية الحسية ولا المعطيات العقلية (.....) بل معطيات شعور حالم)٢، ومن هنا تمثل الرؤيا الصوفية صراعا جوهرياً بين بنيتين متناقضتين للوجود: بنية العالم الموضوعي الذي تقوم على إقصائه تماماً، والبنية المغيبة التي تلخص جوهر الرؤيا الصوفية وتشكل بعدها الاساس.

ان هذه الرؤيا البرزخية التي يقطعها الصوفي في معراجه الروحي تمثل – في نظره – المفهوم الحقيقي للوجود، اذ يستحيل (المغيب) حقيقة مطلقة يطرحها الصوفي بديلاً رافضاً لعالمه المعلن، فالعالم لا يعني ذاته لدى الصوفي، بل ذلك المطلق الذي لا يقال ولا يرى ولا يعرف او يعرف وهذا ما لا تدركه اداة معرفية خارجة بل هو معرفة تنطلق من الداخل، لا تتحقق إلا بالشهود او الذوق او الاشراق. واحسب هنا ان اورد بيتاً للشبلي هو رغم بساطته – يمثل تجسيداً لهذا الهاجس:

اذا خاطبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق٣

ولست هنا بصدد تحليل البيت وكشف احتمالاته التأويلية، إلا ان ما احتاج اليه هنا هو الاشارة إلى ان الشبلي يطرح تحدياً صارخاً لعالم الملموس، من خلال التضاد بين (علم الورق) الذي يمثل المعرفة الخارجة عن الذات، وبين (علم الخرق) الذي يشير إلى الغيب، ويمثل المعرفة الحقيقية للوجود، والخرق هنا، كما هو معلوم يشير إلى اللباس الذي اشتهر به الصوفية.

٢

هذا يعني ان مفهوم الوجود تتجاوز معرفته في الرؤيا الصوفية (العقل)، لانه غير قادر على معرفة الوجود معرفة حقيقية (فمقاربة الوجود بوساطة العقل التحليلي المنطقي لا تزيد الانسان الا حيرة وضياعاً، تبعده عن نفسه وعن الوجود في آن)٤ ومن هنا اعتمد الصوفية (الخيال بوصفه ضرباً من المعرفة)٥ التي تلغي المسافة والزمن بين الوجود وبين الصوفي، وهو يعمل ما يراه العقل محالاً، فمن لا يعرف الخيال ومرتبته، لا تكون له من المعرفة رائحة، كما يؤكد ابن عربي٦، لذا فان محاولة اكتشاف المعنى الغيبي لا يتحصل الا بالمكاشفة التي (هي حضور لا ينعتب بالبيان)٧، وهي نتاج تحولات داخلية لا يتم الوصول اليها عن طريق الاستقراء، او التحليل.

٣

واذا كانت الرؤيا الصوفية تمثل ذلك المسار السري لمذاقات الوصول إلى المطلق، وانها تجلو في جوهرها ثنائية بؤرية هي ثنائية الحضور / الغياب، فإن الوجود يبقى في نظر الصوفي ناقصاً، وهذا ما اشار اليه ابو عمر الدمشقي (ت ٣٢٠) حين عرف التجربة الصوفية بانها (رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن كل ما هو ناقص بمشاهدة من هو منزه عن كل نقص)٨، فالصوفي مع هذا الكون الناقص، الذي هو بمثابة الثوب، أي انه ظل متغير زائل – كما يقول ادونيس –٩ يشعر انه بحاجة إلى عالم (مطلق)، يدرك بالبصيرة لا البصر، خارج عن العقل، والنظام وغير خاضع لرياضة ذهنية، او إدراك اصولي.

٤

إن هذا الكشف التأملي للوجود، او السعي إلى انهاء النقص، لا يتم – اذن – إلا بهذه الرحلة الخيالية، وهي رحلة تجريدية، لان الصوفي يتوسل من خلالها (لبلوغ حال "الفناء" التام عن العالم، والبقاء في عالم الحقيقة، بمجاهدات شاقة ترمي إلى إماتة الحواس وتصفية النفس من الحجب المظلمة التي تعيقها عن شهود الحقيقة والامتزاج بها)١٠، وهذا الفناء الذي ينفصل فيه المتصوف عن عالمه الخارجي، ويتخلص من عناصر الكون، هو ما اطلق عليه ابن عربي "الموت الاختياري" الذي (يتم في هذه الحياة الدنيا والروح ما زالت تحل في الجسد)،١١

إن هذا الموت الذي يتخذه الصوفي سبيلاً للخلاص، هو العتبة التي تنقدح عندها شرارة المعرفة الكاملة لحقيقة الكون، والرؤى المعمقة التي تخترق مدركات الحس، وهنا تحصل عملية "تعرية" في نظر الصوفي، فيستحيل الوجود الظاهر وهما او خيالاً، والباطن حقيقة (فالصوفي العارف بموته الاختياري، او تجربة اليقظة التي عاشها، هو القادر على تأويل هذا الوجود والعبور إلى باطنه، كما يعبر مفسر الحلم صورته الرامزة إلى حقيقة المرموز اليها. ان العارف وحده الذي يدرك ان عالم الحس الذي نعانيه ليس إلا حالة من النوم)،١٢

٥

إن الصوفي في رحلته المعرفية الشاقة هذه، يسير ضمن اتجاه مضاد، خلافاً للانسان العادي الذي يقف عند حدود المعاني العقلية التي تنتجها له القوة المفكرة في احسن الاحوال١٣، فهو القادر على استحضار الوجود السرمدي المطلق، فيتجاوز بوساطة مجاهداته النفسية الهاوية الفيزيائية ويعمل على تبديدها روحياً وصولاً إلى الكمال الانساني، او الكشف عن اسرار الوجود، ولا يزال جسده غطاءً لروحه، أي انه يستطيع ان يرى وجوده الحقيقي ضمن ارادته (هو)، لا إرادة طبيعية ضاغطة كما يحصل للإنسان لحظة الموت، فهو مرغم على رؤية ذلك الوجود حال انفصال الروح عن الجسد، لان سلطة (الموت الطبيعي)، عندئذ هي التي ستعمل على ازاحة ذلك الحجاب الكثيف الذي كان فاصلاً بينه وبين (الحقيقة) في مرحلة الوجود الحسي.

بقي ان أشير إلى مسألة أخيرة في علاقة الصوفي العارف بالوجود، وهي موقع (الانا) من الذات العارفة.

طبقاً لما تقدم، فان العلاقة بين العارف وبين عالم الغيب، تكبر بقدر ما تصغر المسافة بينه – الصوفي – وبين عالم الحضور.

إن علاقة الصوفي بـ (الانا) تتشكل – هي الاخرى – ضمن هذا المسار العكسي، تزداد المعرفة بقدر ما يزول الوعي بالانا او الانية. (فلا يدرك الوجود حقا الا بتجاوز هذه الانا)١٤، وزوال الانا – بوصفها خارجاً او ظاهراً حياتياً مندرجاً في الآن اليومي، وعائقاً امام المعرفة، يعني ان يفقد الوجود تعيناته وتحديداته وقيوده، ويعود إلى اصله – اللا تحديد، واللا تعين١٥، وهو امر طالما عمل الصوفي، وجاهد من اجل الوصول اليه، وهو تجلي الوجود عبر تجربة الكشف، وتخليص الذات من كل علاقة مع الآخر، لذا فقد (ظل (الانا) الذي رمز به الصوفيون إلى بشريتهم مثار عذاب شديد لهم (....)، ولم تكن ازاحته او تجاوزه بالامر اليسير، لان الانخلاع عن البشرية حال عانى منه الصوفية كثيراً)١٦، وتبعاً لذلك يبقى الصوفي العارف – في حياته – واقعاً تحت وطأة ثنائية حادة لا يستطيع الخلاص منها، وهي ثنائية (الانا / الوجود).

الإحالات

١–ابن عربي حياته ومذهبه، أسين بلاثيوس، ت: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت: ٧٥،

٢–بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٣٧٨،

٣–ديوان ابي بكر الشبلي، د. مصطفى كامل الشيبي. دار التضامن، بغداد: ١١٤،

٤–الصوفية والسوريالية، ادونيس، بيروت، لبنان: ٣٩،

٥–الخيال مفهوماته ووظائفه، د. محمد عاطف جودة نصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب: ٨١،

٦–ينظر: الصوفية والسوريالية: ٧٨،

٧–التعريفات للجرجاني، بيروت، لبنان: ١٢٥،

٨–طبقات الصوفية، السلمي، تح: نور الدين شريبة، القاهرة: ٣٧٨، وينظر: الشعر الصوفي، عدنان حسين العوادي، دار الشؤون الثقافية، بغداد: ٢٦،

٩–ينظر: الصوفية والسوريالية: ٧٦،

١٠–الشعر الصوفي: ٢٧،

١١–فلسفة التأويل، نصر حامد ابو زيد، دار التنوير، بيروت: ٢٠٦ – ٢٠٧،

١٢–م.ن: ٢٢٦،

١٣–م.ن.ص.

١٤–الصوفية والسوريالية ٤٠،

١٥–م.ن: ٤١،

١٦–الشعر الصوفي: ٢٧،

متابعات

إصدارات كوردية

إصدارات كوردية

أنطولوجيا الشعر السويدي

صدر كتاب (أنطولوجيا الشعر السويدي) عن (دار ئاراس) ٢٠٠٥م، من تأليف: (إيدنت سودير كران)، و(كونتار إيكيلوف)، و(آرتو لون كفيست). ترجمه عن السويدية: (رزكار شيخاني).

كورد تركمانستان

صدرعن المجمع العلمي الكوردستاني كتاب بعنوان (كورد تركمانستان/ التاريخ ، الأنتوكرافيا، الأدب) ، من تأليف الدكتور (مارف خزندار)، العضو في المجمع العلمي الكوردستاني.

كرونولوجيا أربيل

أصدرت دار ئاراس للطباعة والنشر كتاباً بعنوان (كرونولوجيا أربيل)، تأليف: مشيحا زخا، وترجمه وعلّق عليه: عزيز عبد الأحد نباتي.

(جنوب كردستان)

صدر عن (دار ئاراس) كتاب(جنوب كردستان)، وهو دراسة أنثروبولوجية عن منطقة إقليم كوردستان العراق، الكتاب من تأليف: (هنري فيلد)، ونقله الى العربية الدكتور (جرجيس فتح الله).

نشاطات ثقافية

فلم كوردي

في بداية شهر آذار الجاري وبدعم من حكومة إقليم كوردستان ، بدأ تصويرمشاهد الفلم الكوردي (النجوم تصمت في النهار). إن ما يميز هذا الفلم هو أنه ولأول مرة في تاريخ السينما الكوردية يكون مخرج الفلم إمرأة، كما إن معظم كادر الفلم من النساء. الفلم من سيناريو وإخراج (شيرين جيهاني)، وبمعاونة الشاعرة والأديبةالكوردية (مهاباد قرداغي).

أمسيات شعرية

أقام مركز(ئاشتي) الثقافي في أربيل، امسية شعرية للشاعرين الشابين (قهار زامدار، و كاروان كويي)، على قاعة المركز. كما نظم إتحاد الكتاب الكورد/ فرع أربيل، ندوة شعرية للدكتور (فرهاد بيربال) على قاعة الشهيد مهدي خوشناو، بمقر الإتحاد. وقدم فيها مجموعة من قصائده التي تتضمن نقدا للوضع السياسي والإجتماعي الحالي.

ندوة

إمتداداً لنشاطاتها الثقافية، عقدت رابطة (كاوا) الثقافية ندوة، تحت عنوان(الواجبات الجديدة للمرأة في المجتمع الكوردستاني) للسيدة (بخشان زنكنة) العضوة في البرلمان الكوردستاني، في قاعة رابطة (كاوا).

فلكور كوردي

بهدف الحفاظ على الثقافة القومية وإحيائها، نظم (مركز روز الثقافي)، و(مركز قره جوخ للثقافة والفن)، ندوة فولكلورية وفنية بعنوان(أصناف وأشكال بعض أغاني العمل في الفلكلور الكوردي)، للفولكلوريست الكوردي (ملا رسول بنديان)، في قاعة مركز (روز) بمخمور.